

تفسير السعدي

@ 213 @ زعموا الإيمان به أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به ، موجود هو أو مثله ، أو ما هو فوقه النبي الذي كفروا به . وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به ، موجود مثلها ، أو أعظم منها ، فيمن آمنوا به . فلم يبق بعد ذلك ، إلا التشهي والهوى ، ومجرد الدعوى ، التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها . ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقا ، ذكر عقابا شاملا لهم ، ولكل كافر فقال : ^ (وأعدنا للكافرين عذابا مهينا) ^ كما تكبروا عن الإيمان بالله ، أهانهم بالعذاب الأليم المخزي . ! 2 ! 2 وهذا يتضمن الإيمان ، بكل ما أخبر الله به عن نفسه ، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام . ! 2 ! 2 بل آمنوا بهم كلهم . فهذا هو الإيمان الحقيقي ، واليقين المبني على البرهان . ! 2 ! 2 أي : جزاء إيمانهم ، وما ترتب عليه ، من عمل صالح ، وقول حسن ، وخلق جميل ، كل على حسب حاله . ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم . ! 2 ! 2 يغفر السيئات ويتقبل الحسنات . ^ (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا * ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا * فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا * وبكفرهم وقولهم على مريم بهتنا عظيم * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا * فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا * وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعدنا للكافرين منهم عذابا أليما) ^ هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب ، للرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، على وجه العناد والافتراح ، وجعلهم هذا السؤال . يتوقف عليه تصديقهم ، أو تكذيبهم . وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة ، كما نزلت التوراة والإنجيل . وهذا غاية الظلم منهم ، فإن الرسول ، بشر عبد ، مدير ليس في يده من الأمر شيء ، بل الأمر كله لله . وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده ، كما قال تعالى عن الرسول ، لما ذكر الآيات التي فيها اقترح المشركين عليه صلى الله عليه وسلم ، !

2 2 ! . وكذلك جعلهم الفارق ، بين الحق والباطل ، مجرد إنزال الكتاب جملة ، أو مفردا ، مجرد دعوى ، لا دليل عليها ، ولا مناسبة ، بل ولا شبهة . فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء ، أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب ، نزل مفردا ، فلا تؤمنوا به ، ولا تصدقوه ؟ بل نزول القرآن مفردا بحسب الأحوال ، مما يدل على عظمتة ، واعتناء الله بمن أنزل عليه كما قال تعالى : ^ (وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) ^ . فلما ذكر اعتراضهم الفاسد ، أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم . بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ، ما هو أعظم مما سلخوا مع الرسول ، الذي يزعمون أنهم آمنوا به ، من سؤالهم له ، رؤية الله عيانا ، واتخاذهم العجل إلها يعبدونه ، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ، ما لم يره غيرهم . ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم ، وهو التوراة ، حتى رفع الطور من فوق رؤوسهم ، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا ، أسقط عليهم ، فقبلوا ذلك على وجه الإغماض ، والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري . ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية ، التي أمروا بدخولها سجدا مستغفرين ، فخالفوا القول والفعل . ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت ، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة . وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم ، فنبذوه وراء ظهورهم ، وكفروا بآيات الله ، وقتلوا رسله بغير حق . ومن قولهم : إنهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه . والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه ، بل شبه لهم غيره ، فقتلوا غيره وصلبوه . وادعائهم أن قلوبهم غلف ، لا تفقه ما تقول لهم ، ولا تفهمه . وبصدهم الناس عن سبيل الله ، فصدوهم عن الحق ، ودعوتهم إلى ما هم عليه من الضلال والغي . وبأخذهم السحت ، والربا ، مع نهى الله لهم عنه ، والتشديد فيه . فالذين فعلوا هذه الأفاعيل ، لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمدا ، أن ينزل عليهم كتابا من السماء . وهذه الطريقة ، من أحسن الطرق ، لمحاجة الخصم المبطل . وهو : أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ، ما جعله شبهة له ولغيره ، في رد الحق ، أن يبين من حاله الخبيثة ، وأفعاله الشنيعة ، ما هو من أقبح ما صدر منه ، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس ، وأن له مقدمات يجعل هذا معها . وكذلك كل اعتراض يعترضون به ، على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، يمكن أن يقابل بمثله ، أو ما هو أقوى منه ، في نبوة من يدعون إيمانهم به ، ليكتفى بذلك شرهم ، وينقمع باطلهم . وكل حجة سلخواها ، في تقريرهم لنبوة من آمنوا